ضفدع الوحل

أحمد يوسف عقيلة

ضفدع الوحل

قصص قصيرة

دار البيان للنشر والتوزيع والاعلان
البيان

ضفدع الوحل

قصص قصيرة

أحمد يوسف عقيلة

لوحة الغلاف للرسام البولندي توماس كوبيرا

- الطبعة الأولى: 2020 م
- رقم الإيداع المحلي : 606 /2019دار الكتب الوطنية بنغازي
- الرقم الدولي الموحد: ردمك 978-9959-37-103-4

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب بنغازي – ليبيا

– جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر:

دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان

بنغـازي - ليبيا

هاتف 061.2232104 – محمول 091.2090770

في البدء كانت حكاية

سالم العوكلي

منذ أن كان ينصت لدفء حكايات عمته في شتاء الجبل البارد وليله الطويل.. تشرّب المبدع (أحمد يوسف عقيلة) الحكاية كوسيلة للتعرف على أسرار المحيط.. فصار مسكوناً بها.. باحثاً عنها في نثر المكان وفي أشجان الذاكرة.. منصتاً لهمسها في سلوك الكائنات الضاجّة والبكماء.. في نعيق غراب يشق الأفق كل صباح.. في أسراب الضباب تجتاح سفوح الجبال المتاخمة.. في مناجاة العشاق للنجوم.. في عواء ذئب يشق ليل القرية الهادئ.. في تجاعيد الصخر.. وإشراقه اللون في كل ربيع.

كان يدرك أن وراء كل حركة حكاية.. وفي ثنايا كل

صمت حكاية.. أو بمعنى آخر كان يدرك أن لا شيء فوق الأرض ليس له القدرة على البوح.. فالإصغاء لصمت الكائنات هو سر الفن ومكمن قوته.. والمران على فض أسرار القريحة الشعبية ذخيرة الأدب الباحث عن ملمحه الخاص.. فوراء كل مثل شعبي.. أو غنّاوة علَم.. أو مهاجاة رحى.. أو أرجوزة منجل.. حكاية.. لذلك كان عالمه القصصي مشروعاً مثابراً للحوار مع الطبيعة.. وإنطاق الكائنات التي ندوسها دون أن نفطن.. ولأنه أديب باحث يطيل المكوث عند الأشياء.. محدقاً في الوطاة حين يمشي في دروبها العذراء.. كان لا يكف عن تصفح الأمكنة واضعاً خطوطه تحت كل سياق مبهر.. وتحت كل جملة كثيفة الشعرية.. وعبر تواشج حميم بين الباحث والموثق والمبدع بدأ سيرته مع توثيق تلك الشعرية الفطرية المهددة بالانقراض.. فجمع ما أتيح من الأمثلة والتعابير الشعبية.. التي تعكس تجربة أناس استخلصوا من ضرع الحياة زبدة المعرفة.. وتتبع حنين الرحى التي كانت مائدة شعرٍ للتنفيس عن مكابيت النساء.. وعن دمامل الدموع في القلب.. ولاحقَ مواسم جز الصوف واحتفالاتها بالحوار الشعري.. وفن الارتجال واستدراج الرموز.. كما سافر إلى من تبقّى من رواة الحكايات الشعبية.. ليجمع ويحقق.. حتى يصل إلى أدق صياغة لنص الحكاية الأصلية.. باحثاً عن موسيقى النثر الخفية

وهي تصنع من الإيقاع سريراً هزّازاً للأطفال.. وتحت عنوان (خراريف ليبية) جمع تلك الحكايات بعد أن أضفى عليها حسّه الأدبي وخبرته السردية.. ومن ثَم قاده الشوق للرحيل في حكايات الإنسان في هذا العالم.. متتبعاً ذلك الخيط السحري الذي يربط بينها.. حيث أنجز رحيل الحكاية (حين تسافر الحكاية).. ذلك التشابه المدهش بينها.. في زمن كان التجانس المعرفي وتخاصب المخيّلة الإنسانية فضاءً لحوار الحضارات.. فكانت الحكاية تهاجر كما الطيور.. وكل مكان تحط فيه تقتبس ملامحه وتتنكّه بطعمه.. وعبر كل ذلك اكتشف منجماً لا ينضب لحبره.. ومن محيطه القريب استعار تقنية «قصته» التي تحولت إلى حبكة تجمع بين الأصالة والمعاصرة.. بين الزمان والمكان.. بين الجسد والروح .. بين الواقعة والمخيّلة.. وبين القصيدة والحكاية.

في هذه المجموعة (ضفدع الوحل) يواصل القاص (أحمد يوسف عقيلة) تمارين نحته للقصة التي تسعى لأكبر قدر من الاختزال في حروف العطف.. دون أن يتخلى عن رشاقة الجملة.. وهارموني النثر السائر على مهل صوب قفلته الذكية.. التي تفتح نافذة أخرى تطل على مشهد يتسكع فيه خيال القارئ.. وفي مكان لا يهدأ فيه الهوس بالحياة واستمرار الوجود.. يتأمل الحركة التي

لا تهدأ.. والمفارقة الساخرة.. والكيمياء الخفية داخل الجسد.. فتغدو العصافير والقطط والفراشات والمطر والشهوة وكل ما ينبض أمامه وسيلته لتأويل كل هذا النبض في صالح التغني بالحياة حين يكون الجمال فتيلها الذي لا ينطفئ.

حكايات أخرى تفتح شهيتنا لمزيد من الإصغاء.. تضفر الشعر مع النثر.. يكتبها نسّاج محترف.. كل حكاية خيط صوف في (مَسَدَى) رواية ليس لها نهاية.

لحظة عابرة

إلى القاص التونسي: عيسى جابلي.

... عصفور يطارد فراشة.. يصطدم بزجاج النافذة.. يسقط في فم القط المتشمّس أسفل الجدار.

القط يعزو ذلك إلى حسن حظه.. وربما لأن السماء راضية عنه.. لكنه في النهاية يحس بالزهو لأنه اتخذ الموقع المناسب.. وأنّ السماء لا علاقة لها بالأمر.

القط الآخر يراقب المشهد من فوق السياج: (لا يفعل هذا الكسول شيئاً سوى التمدد والتثاؤب طوال النهار.. وتسقط له العصافير في فمه)!

الفراشة تُرجع ذلك إلى حسن حظها.. لكنها تشعر بالزهو هي الأخرى لبراعتها في مراوغة العصفور.

العصيفيرات التي تنتظر وجبتها في العش لا تشعر بأي قلق حتى الآن.. فالأم تتأخر أحياناً.. لكنها في آخر النهار تعود بحوصلة ممتلئة.

ربّة البيت تكنس الريش المبعثر.. وتلقي باللائمة على القط الذي لا يبالي بتعبها.. لكنها في نهاية الأمر تسلّم بالقدَر.. هذا الشيء الغامض الذي يلقي بالعصافير في أفواه القطط.

الريش ـ بين المخالب والمكنسة والريح ـ يسأل عن جناحه.. وتصله الحكمة كعادتها متأخرة: (الريش البعيد عن جناحه يخضع لمشيئة الآخرين)!

النافذة تشعر بالاستياء: (يصطدمون بي دائماً.. كأنّ الربّ لم يضع لهم عيوناً في رؤوسهم)!

الريح لا تشاطر النافذة استياءها.. بل تهبّ: (هذا جزء من عملي.. كنس الأشياء المبعثرة).

... وحده العصفور لم يتسع له الوقت ليفهم ما حدث..!

***

(2013)

المطر في المقبرة

1

... غيمة راعدة تسد الأفق.. السماء تلتحم بالأرض.. ريح المطر تحمل الرذاذ.. رشّات المطر الأولى تثير الغبار.. البرق يومض.. تلمع الصخور الندية في السفوح.

2

الرجال المقرورون في المقبرة القديمة الموحلة.. المتغضّنو الوجوه.. يضعون آخر حجر على القبر.. يهمس أحدهم في أذن جاره وهو ينشق بأنفه.. ويضم كفّيه الموحلتين إلى بعضهما: (الله يرحمه.. كان أمامه صيف بأكمله ليموت)..!

بجوار المقبرة ضأن تدير ظهورها للمطر.

***

(2013)

الرتل

... في وادي النمل أصدرت النملة المسؤولة عن الأمن الخارجي أوامرها:

- (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم).. فالرتل قادم.. يدوس كل شيء في طريقه.

وضعت نملة شغّالة قشّتها جانباً وقالت:

- هل هو رتل الجنرال؟

- بل هو رتل الثوّار.

- هل سيدوسوننا هم أيضاً؟

- كل الأرتال تدوس.

- كل الأرتال؟!

- بالتأكيد.. هذا هو القاسم المشترك للأرتال.. تدوس..

تسحق.. تحطّم.. حتى لو كان الرتل يقوده نبي مبعوث من السماء مباشرة!

ـ أنتِ تبالغين في حسّكِ الأمني.

ـ كأنكِ لم تسمعي تحذير جدّتنا: (لا يحطمنّكم سليمان وجنوده).

ـ لكن النبي لا يفعل ذلك عن قصد.

ـ ما الفرق بالنسبة لنا.. أن يحطّمنا رتل عن قصد أو غير قصد؟! ادخلي.. ودعي القشّة تذروها الرياح.. فالأولوية لسلامة النمل.. إذا مرّ أي رتل فابتهلي إلى الرب حتى يبتعد.

ـ اللهم جنّبنا كل أنواع الأرتال.. ولكن كيف عرفتِ أنه رتل الثوار؟!

ـ من السهل معرفة ذلك.. فالثوّار مولَعون دائماً بإطلاق الرصاص.. حتى حين يتأخر المطر!

***

(2013)

ثور الاستيلاد

1

... الأرملة تخلع السواد.. يظهر على كتفيها شال أحمر.. في يديها تشرق نقوش الحناء.. جسدها يتغربل لصوت الذكر الأجشّ.. تطيل النظر إلى قمصان الرجال وسراويلهم التي تقطر فوق حبال الغسيل.

2

... بقرتها منذ الأمس وهي تنط فوق الأبقار الأخرى.. تلك هي طريقتها في الإعلان عن رغبتها في الثور.. تنظر إليها بشيء من الحسد.. فالبقرة تفصح عن اشتهائها في وضح الشمس.. تخور.. تتشمم الهواء بحثاً عن رائحة الثيران.

3

... تمشي مع السفح الشرقي.. تتلفّت.. القش يقرمش تحت حذائها.. شالها الأحمر يبرق في خلوات الغابة.. دخان خفيف يصعد من مصب الوادي.. إنها شاي الضحى عند الرعاة.. خوار الثور يُسمَع متقطّعاً خلف الأجراف.

4

... تجلس على صخرة عريضة بعيداً عن النار.. تشبك يديها فوق ركبتيها.. يمد لها كوب الشاي.. يرتعش الكوب.. تنسكب بعض القطرات على أصابعها.

ـ لا تقلقي من ناحية الثور.. إنه مروَّض.. هادئ.. بإمكان أية أنثى أن تقوده.

ـ هل هو مناسب.. أعني...

ـ أووووه.. في كامل النضج.. نموذج!

ـ ألا يبدو قصيراً بعض الشيء؟

ـ لا يمكنكِ أن تحكمي عليه وهو نائم.. انتظري حتى يقف.

ـ أخشى أن يكون نحيفاً.

ـ إطلاقاً.. اقتربي منه.. ها هو يقف.. يمد عنقه ناحيتكِ.. فتيّ.. ممتلئ.. مستقيم الظهر.. اقتربي أكثر.. يمكنكِ أن تتحسسيه.. لن ينطحكِ.

ـ أووووه.. دافئ.. ساخن.. على الرغم من أنه كان في الظل.

5

... تعود مع السفح الغربي المظلَّل.. تقود الثور.. تمشي بهدوء.. وعلى شالها يعلق الكثير من القشّ.

***

(2013)

وشوشة

1

... في الكُتّاب.. ينظر من طرف عينه إلى الفقيه وعصاه وحبل الفلقة المتمدد كالأفعى إلى جانبه.. يهمس دون أن ينظر إليّ: (حفظت المطففين تكسير.. قدماي تتململان).

2

... في الفصل.. ينظر من طرف عينه إلى المعلم ومسطرته الطويلة التي يصفع بها كفّه.. يهمس دون أن ينظر إليّ: (المسطرة أصعب من العصا.. فيها حافّة).

3

... في الجيش.. ينظر من طرف عينه إلى الضابط الذي يستعرضنا في الساحة.. يوشوش دون أن ينظر إليّ: (حذائي ليس لامعاً كما ينبغي.. هل سيلاحظ ذلك)؟

4

... في بوابة الأمن.. يهمس في أذني وهو يفتّش جيوبه: (نسيت بطاقتي الشخصية).

5

... في نزهتنا في الصحراء.. نحتسي الشاي تحت قمر ينشر نوره بالتساوي على كل الأركان.. يوشوش.. وهو ينظر إليّ هذه المرة: (هل أضع لك مزيداً من السكر في الشاي)؟!

***

(2013)

القُبّة

1

... ليل.. قُبّة.. وثلاثة خيالات.. بجوار القُبّة حجرة لتحفيظ القرآن.. رف مصاحف.. أعشاش في النوافذ.. بئر.. قبور قديمة.. يؤطرها الشوك.. والشيح.. تلتصق بشواهدها صدفات الحلازين.

2

... أحدهم يقرأ لافتة القُبّة بصوت ممطوط: (مقاااام سيدي المتموّح.. نفعنا الله ببركاته).

3

... داخل القُبّة قبر مثل صندوق.. مغطى بقماش أخضر لامع.. تتناثر فوقه عملات معدنية.. ومسابح.. وأعواد بخور.

4

... يتحسس أحدهم تحت القبر:

- هذا أفضل مكان للعبوة الناسفة.

5

... تتطاير القُبّة.. تتفتت عظام سيدي المتموّح.. تحترق المصاحف.. تنهار جدران البئر الوحيدة.. تتناثر هياكل الموتى.. تنسحق صدفات الحلازين.

6

... الثلاث الليليون يغادرون قبل الفجر.. يملؤهم الزهو.. وفي الأجواء النديّة تختلط رائحة الثرى.. والشيح المقتلَع.. والبخور.. وحريق الكتب.. والزغب الأصفر لعصافير النوافذ.

***

(2013)

الأبكم

... آه لو أستطيع النطق.. صدري مليء بالكلام.. الكلام يحتاج إلى لسان.. لا.. اللسان في الواقع ليس للكلام في حد ذاته.. بل لإيصال الكلام إلى الآخرين.. لست في حاجة إلى اللسان.. أستطيع الحديث إلى نفسي على الأقل.. الأطفال يصرخون خلفي: (أبكم.. درويش.. مجنون).. أولاد الحرام..! لا أحد يربّي أولاده في هذا الزمان.. الشارع هو الذي يربّي.. لا همّ لهم سوى قذف الأولاد إلى الشوارع ليصرخوا خلفي.. صحيح أنني أبول واقفاً على الطريق العام.. في وضح النهار.. ولكن ماذا في ذلك؟ كلهم يبولون.. حتى رئيس الدولة حين يسافر عن طريق البر.. فإن الموكب كله يقف من أجل أن يبول فخامته..! آه لو أستطيع النطق.

حين كنت بالأمس أمشي في الغابة.. رأيت قطيع ماعز.. فقلت لعلني أجد حليباً عند الراعي.. فاقتربت من الدخان.. وجدت ثلاث راعيات حول النار.. قدّمن لي الحليب والشاي

وخبز التنور.. ثم شرعن ينظرن إلى بعضهن ويتغامزن.. فكّرت: (لعلهن يسخرن مني لأن الحليب يقطر من لحيتي).. ولكن فجأة قفزن فوقي.. وأخذن يخلعن ملابسي وهن يصرخن ويضحكن.. ثم ظهر رجل من بين الأشجار.. وصرخ: (يا قليل الحياء.. تخلع ملابسك أمام النساء)..! صفعني.. وركلني على مؤخرتي.. آه لو أملك لساناً..!

لا أحد يحسن معاملتي سوى (مستورة).. تنهر فروخ الحرام الصارخين خلفي.. تقودني إلى بيتها.. تنظّف ملابسي.. تغطسني في الحمّام.. تمشّطني.. تقلّم أظافري.. تعطّرني.. تقدّم لي العشاء.. أبيت معها على سريرها.. وتطلب منّي أن أدلّكها.. لا أحد يحسن إليّ في هذه القرية الخربة سوى مستورة..! آه لو أستطيع النطق.. ولو لمرّة واحدة!!

***

(2013)

الأيّام الخوالي

... زايد.. ومسعودة.. في الحديقة الخلفية للفيلا.. تحت القمر.. الشاي بينهما.. قطرات الشاي التي تتسرب من رقبة البرّاد تُحدث وشوشة محبَّبة فوق الجمرات.. الجو مشبع برائحة الشاي والذكريات:

ـ ما شاء الله.. قمرا شقّاقي!

ـ تلقط عليها الإبرة!

ـ تذكّر يا حاج زايد.. أول مرة عرفتك وأنا واردة على البير.

ـ أووو.. وأنتِ شايلة البرميل.. وجهك تحت الشال الأزرق شمس متربعة وسط السماء!

ـ يوم كانت للنساء وجوه!

ـ اغسلي السفرة.. في هذه الأيام فقدت المرأة وجهها.. حوّلوها إلى شيء يتحرك تحت قماش أسود!

ـ ما علينا.. هذا سريب طويل.. وأنت تسقي.. تنشل الدلو.. سروالك مشروط وقفاك حاسر!

ـ حرّكي الجمر.. وأنتِ لسانك طويل.

ـ أنت اللي ما فيك حاجة طويلة غير لسانك! على كل حال.. تعرّفت عليك من قفاك.. كانت أيام!

ـ وكم ليلة بتنا بلا عشاء.. وبلا ضيّ.. لكن كنّا مبسوطين!

ـ في الشتاء مشيت حفيانة على الثلج!

ـ صبّي طاسة.. أنتِ يا مسعودة دفع رباعي!

ـ خطّرت عليّ الدفع الرباعي.. غيّر لنا السيارة بآخر موديل.

ـ والله أنتِ اللي تبي تغيير!

ـ بعد عِشرة عمر يا قليل الخير؟!

ـ حتى البحر ما يكره الزيادة!

ـ أنت يا حاج زايد اللي زايد عن الحاجة! تذكّر يا ازويّد.. في ليلة شتاء قاطب.. خشّ علينا السيل.. طاح البيت..

وسكنّا في حقفة.. راحت الأيام الحلوة!

- ونشلتك من وسط السيل وأنتِ مقرورة.. كانت أيّام!

- ومرّة ضربتني.. قلت المثرودة ناشفة.. الله يسامحك.

- لكن يوم السوق شريت لك رداء.

- صحيح.. كنت تجرح وتداوي!

- قبل الراديو والتلفزيون والنقّال كان بلاغ الصوم يجينا بعد الصوم!

- وبلاغ العيد يجينا بعد العيد!

- يا حسايف على الزمان السمح!

- الشاهي مرّ.. حطّي سكّر.

- السكّر يضر صحتك.

- الحياة مرّة والشاهي مرّ؟! حلّي الشاهي.. تكفينا مرارة المعيشة!

- ذنبك على جنبك.. وتذكّر يا زايد سنة الجدب؟

- أي جدب؟

- سنة الجدب.. صيف عالق في صيف.. قِبّلي.. وعجاج..

جعنا.. وعطشنا.. حتى لوني تغيّر.

ـ لونك متغيّر من غادي.. من يوم يومه!

ـ لا والله.. ما قلت لي: وجهك تحت الشال الأزرق شمس متربعة وسط السماء!

ـ هذا كلام في الواسع!

ـ سنة الجدب الغداء رينش.. والعشاء زنباع.. وحفرنا على الجرابيع.

ـ حطي نعناع.. اييييه يا مسعودة.. الحياة كانت!

***

(2013)

زهرة الرِينْش

1

يتشتت ضباب الصباح.. يومض العشب النديّ تحت الشمس الباردة.. تخرج مريم للبحث عن زهرة الرينش في الدغل المحاذي للبيت.. تتمنى أيضاً أن تجد آثار الشيهم الآكل للرينش.. سمعت من معلمتها في الروضة أن قدمي الشيهم الخلفيتين تشبهان قدمي الإنسان.. وربما ستحصل على بعض الشيص أيضاً.. كان صباحها مليئاً بالأماني.. لكنها عادت من رحلتها الاستكشافية لتروي لرفيقاتها في الروضة حكاية أخرى.

2

ـ بنت جيرانكم؟!

ـ كانت متمددة تحت الأغصان.. ترتجف.. الأرض مبللة

بعد الضباب.. الأغصان تقطر.. كان شخص ما ـ لم أتبين وجهه ـ يتمدد فوقها.

ـ لماذا يتمدد فوقها؟ هل هي مريضة؟

ـ ليحميها من البرد يا غبيّة! ما قلت لك العشب مَبْلُول!

ـ ماذا قالت لكِ؟

ـ تواريت خلف الأغصان.. خشيت أن تلومني لأنني ذهبت إلى الغابة وحدي.. وعلى كل حال هي لم تلتفت.. مع أنني عطست!

ـ هل ينبغي أن يتمدد الناس فوق بعضهم أثناء البرد؟!

ـ لا أعرف.. المعلّمة لم تقل لنا ذلك.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لا شيء.. عدت.. وتركتها هناك تتأوه.

ـ مسكينة.. تتأوه من البرد!

ـ ولكنكِ لم تحكي لنا عن زهرة الرينش؟

***

(2013)

زينب

1

... معلّم التاريخ دائماً غاضب.. حتى خُيّل إلينا أنه سقط من بطن أمّه غاضباً.. غاضب لأن السبورة ليست ممسوحة كما يجب.. أو لأن القِبْلي لا يكفّ عن الهبوب.. أو لأن السماء تمطر.. أو بسبب أن ليبيا ليس فيها نهر.. أو لأن اليوم هو الأربعاء.. أو لأن هتلر لم يستطع احتلال بريطانيا.. ويحلم دائماً بأن يعيد صياغة التاريخ.

نتلعثم أثناء تحيته.. ترتجف الكلمات على شفاهنا الطفولية.. ونحن متنفَّس غضبه:

ـ امسح السبورة يا فرخ الحرام.

ـ سمِّعْ فتح القسطنطينية يا سرافة.

تلعثمت في نطق (القسطنطينية).. صفعني حتى

سقطت على جاري في الدرج.

ـ كويّس يا حيوان.. نصّ العام وما تعرف حتى تنطق كلمة (القسطنطينية)؟!

فجأة تظهر زينب في الشارع المحاذي للمدرسة.. يتطاول معلّمنا بعنقه.. تُشرق أساريره.. يمرّر لسانه على شفتيه.. يناديني: (يا احميدة)..!

2

... في اليوم التالي لم تظهر زينب.. رغم اقتراب معلّمنا من النافذة عدة مرات.. (كنا لا نقلّ تطلعاً عن معلمنا لإطلالة زينب).. سدّد إصبعه نحوي:

ـ امسح السبورة يا فرخ الحرام.

تلقينا الصفع جميعاً هذه المرة.. تسرّب سائل ساخن داخل سراويلنا.. لأننا لم نعرف من فتحَ القسطنطينية! وكرهنا القسطنطينية.. هذه الكلمة اللعينة التي نعجز حتى عن نطقها.. وأصبح يوم سعدنا أو بؤسنا رهناً بظهور زينب من عدمه.

3

... بعد ذلك لم تغب زينب أبداً عن الظهور في الوقت

المناسب.. تغيّرت علاقتنا بمعلّمنا.. لم يعد غاضباً من القِبَلي رغم العجاج المتواصل.. غفر لهتلر عجزه عن احتلال بريطانيا.. ولم أعد (فرخ الحرام).. لكن الشيء الذي لا يعرفه معلّمنا هو أننا تسلّلنا ذات مساء إلى بيت زينب.. شكونا لها محنتنا.. وأعطيناها جدول حصص التاريخ!

***

(2013)

ونيس

1

- تعال يا ونيس.. ونّسْني.

حين لا يبيت عندها أحد تطلب مني ذلك.. عمتي (رِبْح).. الأرملة التي تسكن طرف القرية.. تحتضنني في سريرها الواسع.. توسّدني ذراعها.. تضمّني.. تقبّلني وهي تشمّني.. وتردد: (ونيسي.. ولَيدي).

أنام بين ذراعيها.. وجهي غارق في صدرها.. وأنا أشم رائحة عِقْدها الحِلْبة.

2

... بعد صلاة العِشاء يزورنا الإمام وهو يحمل زجاجة ماء.. يتلفّت قبل أن يطرق الباب.. أسرع إلى عمتي رِبْح وأنا أصرخ: (سِيْدي الشيخ.. سِيْدي الشيخ).

تضع سبّابتها فوق شفتيها:

ـ اسكت.. وطّي حِسَّك.

3

... يشرع فضيلته في قراءة المعوّذات وهو يوجّه فمه ناحية فم الزجاجة.. وعمّتي رِبْح تتمدّد أمامه على السرير.

ـ هل هذه هي التي يسمّونها الرُقية الشرعية؟

يهزّ فضيلته رأسه بالإيجاب دون أن ينظر إليّ.. يسكب قليلاً من ماء الزجاجة على كفّه.. يمسح جبين عمّتي رِبْح.. يكرّر ذلك عدة مرات.

وفكّرت: (حين أكبر سأطلب من سيدي الشيخ أن يعلّمني الرُقية الشرعية.. كم هو رائع أن أعمل على شفاء الناس)!

الشيخ يواصل المسح على جسد رِبْح.. حتى إنه يمسح على صدرها وأردافها.. أخذت أنفاسها تعلو.. وتبلع ريقها.. رأيت ارتعاشة في يدي الشيخ.. فالتفت إليّ:

ـ نسيت مصحفي في الجامع.. على الكرسي فوق المنبر.. اذهب وأحضره.

قفزت.. هذا سيتيح لي الصعود على المنبر لأول مرّة.. والجلوس ولو قليلاً على كرسي الإمام.. ولكن للأسف لا

أحد سيراني أفعل ذلك..!

4

... عُدت متأبطاً كتاب الله.. كلمات الله بين يدي.. أضمّها إلى صدري.. أحسست بأنه قد نبت لي جناحان.. تعمّدت السير ببطء لأطيل تلك اللحظة.

5

... مددت المصحف للشيخ.. فأجفل:

ـ ضعه على الطاولة.

كانت عمّتي رِبْح ترفع سحّاب قفطانها حتى رقبتها.. جُبّة الشيخ مكوّمة على الزيّانة.. طرفها يتهدل حتى البلاط.

يدخل فضيلته الحمّام.. تعدّ عمّتي رِبْح الشاي.. وأنا أتأمّل نقوش المصحف.

تكرّر ذلك كثيراً.. وفي كل مرّة كنت أبتهج بالصعود فوق المنبر.. والجلوس على كرسي الإمام.. وإحضار المصحف المنسي..!

6

... رأيته محدودباً على عُكّازه.. لا يمكن أن أخطئه رغم

بياض لحيته.. يجرّ حذاءه المفروك.. قلت قبل أن يراني:

ـ ألازلت تنسى مصحفك؟!

يلتفت.. يضع كفّه فوق حاجبيه.. يحدّق.. يبتسم.. يضغط على كتفي بيد معروقة مرتعشة.. يرفع وجهه إلى السماء.. عيناه نديّتان.. يغمغم بكلمات خالية من الحروف..!

***

(2013)

الهلال

1

... ينظر إلى الهلال النحيف:

- يشبه المنجل.

- كيف تشبّه الهلال بالمنجل؟!

- يشبهه في الانحناء.

- ولو.. هذا لا يكفي.. المنجل آلة حادة.. مسنّنة.. قاطعة.

يصمت صديقي.. يلتقط عوداً.. ينبش التراب.. لم يعد ينظر إلى الهلال.

2

... قبل أن ادخل بيتي نظرت إلى الهلال.. تأمّلته طويلاً

وهو يتوارى خلف سواد الأفق.

3

... مات صديقي.. قلت له من خلال الدموع.. وأنا أحس ببرد الشاهد بين كفّي:

ـ صدقت.. الهلال يشبه المنجل حقاً.

***

(2013)

الشاهد

1

... لأول مرة أدخل المدينة الكبيرة.. أخطو بحذر.. أخشى أن يسخر مني الحضر.. أتردد مرتعشاً قبل أن أعبر الشوارع.. في المساءات تعبق الأزقة برائحة الطعام الشهي.. أحس بالجوع.. تجذبني الرائحة إلى أحد المطاعم.. إحدى الأكلات تجعل فمي يتحلب.. لكنني محرج.. فأنا لا أعرف اسمها.. أشير إليها.. يتأملني الطاهي.. هل أرى شبح ابتسامة؟ ملاعين هؤلاء الحضر.. لديهم أطعمة شهية بأسماء غريبة..!

2

... في حجرتي المزدوجة في الفندق الشعبي نمت مبكراً.. السرير المحاذي فارغ.. في آخر الليل أستيقظ على همهمة.. يبدو أن أحدهم قد شغل السرير الآخر أثناء

نومي.. كان يدير لي ظهره في العتمة.. يتحدث أثناء نومه: (قتلتها.. خنقتها بحبل الغسيل.. كان لابد أن أفعل ذلك منذ زمن...).. لم أستطع مواصلة النوم.. فخرجت مبكراً.. تاركاً رفيقي يهذي في العتمة.

3

... على مشارف قريتي.. في الحافلة الطويلة التي تهتز.. ألتقط الصحيفة التي في ظهر الكرسي.. عنوان بالأحمر العريض: (مقتل أرملة.. مخنوقة بحبل الغسيل فوق سطح منزلها.. ولا يزال البحث جارياً عن القاتل...).

***

(2013)

إحصاء

بعد الانفجار.. يحصون الخسائر:

الجثث.. الأشلاء.. البيوت المهدّمة.

لا أحد يحصي جثث العصافير.. وأعشاشها الملطخة بالدم..!

***

(2014)

عذر..!

... قالت الزوجة من خلال دموعها:

ـ بعد أربعين عاماً تريد أن تتزوّج عليّ.. بماذا قصّرتُ في حقك يا قليل الخير؟

حكّ الزوج خلف أذنه.. وقال:

ـ أنتِ لم تعودي تُحسنين صنع الشاي..!

***

(2014)

في الظل

1

... قيلولة.. شجرة بلّوط ضخمة في مجرى السيل.. حرباء تصعد مع ساق البلّوطة.. عين إلى الأمام.. عين إلى الوراء.. تعاين الألوان لتأخذ التمويه المناسب.

2

... أفعى تتكوّر داخل شق في أعلى الساق الخشنة.. يبرز رأسها كعودٍ داكن.. ترصد الحرباء دون أدنى حركة.

3

... بومة تدور تحت الظل في طيرانٍ صامت.. تحط على الصخرة الكبيرة المتكئة على الساق.

4

... الجندب الصادح في أعلى البلّوطة يكفّ عن الغناء.

... وفي سماء الوادي مزنة بيضاء.. تعبر.. وتتلاشى...

***

(2014)

على هامش المعركة

1

... صباح ماطر.. الصخور النديّة تلمع في السفوح.

الجنود العائدون من معركة البارحة يتحدثون عن المجد.. ويغنّون النشيد الوطني.

2

... آمر الكتيبة يخرج من جيبه دفتراً صغيراً مجعّداً.. أصابه البلل.. يراجع عدد الضحايا وأسماءهم.. يتحسس جرحه بفخر.. لا يلتفت إلى الصخور النديّة التي تلمع في السفوح.

3

... حين يصلون إلى مشارف القرية يرفعون أصواتهم

بالنشيد الوطني.. يجعلون خطواتهم أثقل.. يحرص الآمر على أن يكون جرح رقبته ظاهراً.. غير أنه لم يسجّل في دفتره المجعّد أعداد الحلازين الملوّنة التي داستها أحذية الجنود الخشنة.. الموحلة.. وهم يغنّون النشيد.. ويتحدثون عن المجد.

... في تلك اللحظة.. سرب من غربان الصباح يعبر الأفق...

***

(2014)

هشاشة

... تثبّت الحقيبة المدرسية على كتفيه.. (قبل أن تعبر الطريق عليك أن تنظر إلى الجهتين).. تضع الساندوتش الملفوف في ورق قصدير في جيب الحقيبة الخارجي.. (إذا.. إذا حدث.. يا الله كيف أقول ذلك؟ إذا حدث انفجار عليك أن تلتصق بالأرض.. لا أعرف إن كان ذلك سيُجدي).. يهزّ رأسه بعصبية (أعرف يا أمي.. لقد علّمونا وضع الانبطاح بعد سماع الانفجار).. تغمض عينيها (الانبطاح..! يا الله لماذا ننجب في زمن الحرب؟).. تضع يديها على كتفيه.. تتأمّله.. تملأ عينيها منه (هل تخشى أن تكون هذه المرّة الأخيرة التي تراه فيها؟).. ترسم حوله دائرة بإصبعها.. تقرأ المعوّذات.. (لا تقترب من البركة المحاذية للطريق.. حتى لا تلوثك السيارات).. تنظر إلى اهتزاز الحقيبة فوق كتفيه الصغيرتين.. (هناك كلب أجرب تحت السيارة التي انفجرت الأسبوع الفائت.. يتودد إلى المارّة.. لا تلمسه).. تخطو خلفه.. (انتبه.. كثير من السائقين لا يبالون

بالإشارة الحمراء).. يلتفت (أعرف يا أمي.. حفظتها.. تقولين لي ذلك كل صباح)..! لم تنتبه إلى أنها لاتزال تخطو خلفه.. (وجودنا هش.. انفجار.. أو سيارة عابرة.. أو فايروس لا يُرى بالعين المجرّدة.. أو حتى كلب أجرب من الممكن أن يهدّد وجودنا.. يا الله لماذا نحن كائنات سريعة العطب؟).. تماوجت صورته في عينيها الممتلئتين بالدموع وهي لاتزال تردّد (نحن كائنات سريعة العطب.. كائنات سريعة العطب).

***

(2014)

الطريق إلى السماء

... يأخذ نفَساً عميقاً.. يشرع في تسلّق الصخرة النديّة بفعل الطل.. ضوء النجوم خافت.. يتحسس بحذر النتوءات والتجاويف بيده.. ورجليه الحافيتين.. يتجنّب النظر إلى الأسفل.. تتسارع أنفاسه.. يفكّر: (المرء في كثير من الأحيان لا يدرك قيمة النتوءات والتجاويف).. تنزلق إبهام رِجله اليمنى.. تصطدم ركبته بأحد النتوءات.. يحس بسريانَ الصدمة في سائر جسده.. يكزّ على أسنانه بفحيح (اللعنة).. يلهث.. يبرّر:(حتى الذي يصعد إلى السماء قد يتفوّه باللعنات).. يشعر باليأس.. وبعدم جدوى المحاولة.. يمنحه اليأس طاقة.. وبقفزة أخيرة يعتلي قمّة الصخرة.. ينفخ نفخة طويلة.. يصرخ: (واااااو).. ينظر إلى الأسفل.. إلى وجوه رفاقه المتحلّقين حول النار.. يتراقص فوقها انعكاس اللهب.. وظِلالهم ترتجف خلفهم وتختفي رؤوسها في العتمة.. يخاطبهم ساخراً: (أنتم يا أهل النار.. الركون إلى الدفء يجعل المرء عاجزاً.. أنظروا.. أنا أقرب منكم إلى السماء.. صدّقوني.. الاقتراب من السماء ـ ولو خطوة واحدة قصيرة ـ

يستحق مغادرة الدفء).

يعلّق أحد المستمتعين بالدفء: (لستَ في حاجة إلى جرح ركبتك من أجل الاقتراب من السماء.. الطريق إلى السماء لا يمرّ بالضرورة عن طريق صخرة زلِقة في الظلام.. السماء أقرب مما تتصوّر..!).

يتجاهل التعليقات.. يجثو.. يرفع رأسه.. يغمض عينيه.. يفتح ذراعيه.. ويستغرق في صلاة خرساء.

***

(2015)

كآبة جلالته..!

... صباح ثلجي.. يفطر جلالته في قصره الشتوي وهو مسترخٍ على كرسيه الهزّاز قرب مدفأة الحطب.. حين يطمئنّ إلى أنّ الدفء قد شاع في كل مفاصله الملَكية.. يقرّر أن يتفقد رعيّته.. يقترب من النافذة.. هالَهُ البياض الذي يكسو مملكته حتى الأفق.. يتأمّل اهتزاز الأشجار.. ويدرك أن العاصفة ممتعة.. لكنّه يدرك أيضاً أنّ الصقيع يُقاسمه السُلطة هذا الصباح.. يراقب الطريق اللائذ حول قصره.. الذي يتلاشى طرفاه في البياض.

فلاّحة تنتشل رجليها الغائصتين في الجليد بصعوبة.. تعاند الريح.. تحاول أن تثبّت شالها حول عنقها بيد.. وباليد الأخرى تسند سطل الحليب فوق رأسها.. تتعثر.. ينسكب سطل الحليب.. يبتسم جلالته.. لكنّه يستنتج أن الريح أيضاً تمارس سُلطتها داخل مملكته دون إذنه..!

الحمار الذي ينخسه صاحبه في مؤخرته يضيق ذرعاً.. يرفس صاحبه رفسة مزدوجة.. يوقع الشوالين.. ويختفى في الغابة.. يقهقه جلالته حتى تدمع عيناه.

رغم أنّ مسرّات جلالته لم تكن قليلة في ذلك الصباح الثلجي وهو يتفقّد رعيّته.. إلاّ أنه تساءل باستغراب: (لماذا لا يرفع هؤلاء الفلاحون عيونهم تجاه نوافذ قصري.. ويلقون على ملكهم وولي أمرهم تحية الصباح.. يا لهم من رعاع.. ناكري الجميل.. حتى الكلب الأبقع الذي مرّ من أمام القصر.. وتشمم كل شيء.. بدل أن يرفع وجهه رفع رِجله وبال على أسفل عمود الإنارة.. الكلب!).

يُحس جلالته بشيء من الكآبة.. يتنهّد: (الكلب يحدّد منطقة نفوذه أمام قصري مباشرة..!).

يعود إلى كرسيه الهزّاز قرب المدفأة.. يبسط يديه فوق اللهب.. وهو يرى من خلال النافذة أن الثلج بدأ يتساقط من جديد...

***

(2015)

الكلب الراكض على حافّة الطريق

... لا أحد يعرف لماذا نشب الشجار.. بعضهم قال: (بدافع الملل).. فمنذ فترة طويلة لم يحدث أي عراك.. وهي حالة نادرة.. غير أن شهود عيان قالوا بأن كلب الحاج (امجيّد) قد بال على صخرة على جانب الطريق اتضح أنها تقع ضمن أرض الحاج (اصويلح).. وتصادف ذلك مع خروج التلاميذ من المدرسة.

ـ كلبكم يا كلب يا ولد امجيّد ما يبول إلاّ في أرضنا.. ضاقت الدنيا؟!

ـ والله ما فيه كلب بعدك.. يا كلب الكلاب..!

تتعالى صيحات التلاميذ.. يشكّلون حلقة وهم يضربون بأيديهم فوق حقائبهم: (عركة.. عركة).. يصرخ أحدهم: (الديك يتفل على الدجاجة..!).. فيبصق كل منهما على وجه الآخر.. يتبادلان الصفعات.. يقذف كل منهما حقيبته

على رأس الآخر.. تتبعثر محتويات الحقائب.. يسقط الدِّين في التراب.. يدوسان الحساب.. تتمزّق الجغرافيا.. يكسران ثلاثة أقلام.. يصرخ أحدهم من الحلقة: (اضربه بالمسطرة).. يتشابكان بالأيدي.. يأتي دور الشدّ مع الشَعر.. يهشمان عُلبة الهندسة.. ينقطع زرّ القميص.. يرتفع سقف الأسلحة.. يركلان بعضهما بالأحذية.. يحين وقت العَضّ.. والصراخ.. والدموع.. لم يستطع أحدهما إسقاط الآخر.. يفقد المتحلِّقون حماسهم.. يغادرون.. ينتهى الشجار.. يلهثان.. يمسحان دموعهما.. ينظران إلى أشيائهما المبعثرة.. يلتقطان ألوان الشمع.. ينفخانها من التراب.. يُخرج ابن (امجيّد) المنديل الورقي من جيبه.. يضمّد به جرح خصمه.. في تلك اللحظة يظهر الكلب.. يتمسّح بهما.. يتشمّم.. ثم يرفع رِجله ويبول على الصخرة.. ينظر كل منهما في وجه الآخر.. يبتسمان.. ثم يغادران سوياً والكلب يركض أمامهما وهو يبول على كل صخرة تصادفه..!

***

(2015)

حِسّ أمني..!

... انظر إلى تلك المنقّبة التي تحمل الحقيبة.. مشيتها لا تشي بأنها امرأة.. واضح.. إرهابي متنقّب.. وانظر إلى ذلك الشرطي الشبق الذي يتأملها.. يا حيوان.. لو كان لديك أدنى حس أمني لرأيت أنّ أردافها أرداف رجل.. واضح.. وحتى صدرها ممسوح.. ليس فيه أي بروز.. وفوق ذلك لا تخطو برشاقة امرأة.. تهز رأسها وتتمايل.. كما تمشي الناقة.. واضح.. وأقسم أنّ مقاس الحذاء لا يقل عن ثلاثة وأربعين.. هؤلاء الشرطة الملاعين يعلّمونهم في الأساس (اليسّ يمّ).. و (رِجل بدّل).. وبعض الشتائم.. ويمنحونهم في النهاية ورقة تخرّج.. وسترة واقية من الرصاص.. ويقول لك شرطة! أي شرطة بدون حسّ أمني؟! الحس الأمني ينبغي أن يتحول إلى غريزة.. إلى حاسة سادسة.. بحيث يجعلك تشكّ حتى في ذلك القط الأصفر الذي يتشمم رائحة الشواء أمام المطعم.. انظر.. لقد دخل الإرهابي

ذلك السوق الشعبي المزدحم.. واضح.. يريد إيقاع أكبر عدد من الضحايا.. يا ساتر.. هل أصرخ لتحذير الناس؟ هؤلاء الغافلون لا يستشعرون الخطر.. الانفجار مسألة وقت.. بووووم.. غريبة..! لقد تأخر الانفجار.. ربما الحقيبة أو الحزام الناسف لم يعمل.. يحدث هذا أحياناً مع الانتحاريين.. عليّ أن أتحلّى بالشجاعة.. وألحق بذلك الإرهابي.. فمحاربة الإرهاب ليست مسؤولية الحكومات فقط.. ها هو يدخل متجر العطور.. الملعون يعرف أنّ شظايا الواجهة الزجاجية تضاعف عدد الضحايا.. الأمر واضح.. ليس في حاجة إلى حس أمني.. عليّ أن أحافظ على مسافة كافية حتى لا تطالني الشظايا.. ها هو يرفع النقاب.. استر يا رب.. يا حفيظ.. يا واقي.. يا لطيييييف.. أعني.. إنها.. إنها زوجتي.. حرمنا المصون..! يبدو أنني قد بالغت قليلاً في مسألة الحس الأمني.. لكن الاحتياط واجب.. الحمد لله.. قدّر ولطف.. امممممم إذن هي ترفع نقابها بمجرد الدخول إلى المحلّات..!

***

(2015)

ضفدع الوحل

1

... أشم رائحة الثرى.. يبدو أنها بدأت تمطر.. أخيراً.. بعد عام كامل.. بشموسه وأقماره.. وأنا قابع تحت الأرض.. يسقط المطر أخيراً.. إنني أسمع صوت الأرض.. أنصت إلى أنينها الخفيّ وهي تتشرّب البلل.. نحن الضفادع نموذج للصبر.. ندفن أنفسنا عاماً كاملاً تحت التراب انتظاراً لعودة المطر.. صحيح أننا مجبَرون على ذلك بسبب الشمس والجفاف.. ولكن.. آآآآه.. ها هو البلل.. أحس ببرودته.. يلامس جسدي.. يبلل روحي.. الروح أيضاً في حاجة إلى البلل.. جفاف الروح ألعن من جفاف الجسد.

2

... يبدو أنني قد تأخرت كثيراً عن البرْكة.. كل هذا بسبب الثرثرة.. ها هم قد اغتسلوا.. وشرَعوا يزغردون

للإناث.. بينما أنا لازلت مُلطخاً بوحل عامٍ كامل.. وحل مُعتَّق.. ما هذا؟ ثعبان يبتلع أحدهم..! النداءات ليست لك أيها اللعين.. تركنا لك الأرض عاماً كاملاً.. وتريد حرماننا من لحظة.. يا مَن يغيّر جِلده كل عام..! احذروا.. لقد رأيت ظل جناحين في البِرْكة.. أي عالم هذا الذي نعيش فيه؟ عالم يعجّ بالسموم والمخالب والمناقير.. لو لم أخف أن يكون تجديفاً لسألت الربّ لماذا خلق البِرْكة على هذا النحو؟ ما الحكمة من وجود القَتَلة المتوحشّين المغيّرين لجلودهم؟ بضعة أيام في السنة.. ريثما تجفّ البِرْكة.. ويستخسرونها فينا؟ ألسنا من مخلوقات الله؟ البِرْكَة هي حياتنا.. استمراريتنا.. منذ ملايين السنين ونحن نفعل ذلك.. ألا يحقّ لنا أن نسبح وأن ننادي على إناثنا؟ على ذِكْر الإناث.. كل واحد من هؤلاء الأوغاد يحتضن أنثاه.. بينما أنا لازلت أثرثر عن البِرْكة.

3

... ها هي البِرْكة تجفّ.. أطرافها موحلة.. تتشقق.. تنحشر شراغفنا.. ذرّيتنا في القاع اللزج.. على ذِكْر الذرّية.. لم يتسع لي الوقت للإنجاب هذا العام.. يا لي من أحمق.. قضيت وقتي في الصراخ دفاعاً عن البِرْكة.. بينما هم يستمتعون.. يبدو أنهم لا يأبهون للبِرْكة التي تستبيحها المخالب والمناقير والمبدّلون لجلودهم.. لا بأس.. ليس

أمامي سوى أن أدفن نفسي مرّة أخرى انتظاراً لمطر العام القادم.. يا لهذا الجفاف.. يا رب.. أسألك أن تجعل كل أيامي موحلة..!

***

(2015)

الذئب يختن أبناءه..!

(إلى صديقي عبد الجليل عبدالكريم صالح «اجليّل»)

1

... يستذري جبرين تحت شجرة بلّوط.. يتأمل خيوط المطر المائلة تلمع تحت الشمس: (إنّه «فرح الذيب».. الذئب الآن يختن أبناءه.. يا له من توقيت للختان.. المطر تحت إشراقة الشمس..! الذئاب تتمتع بالخيال.. على عكس الكلاب.. شياهي الآن في مأمن.. فالذئب منشغل بتهيئة ذرّيته للتناسل.. هذا يعني مزيداً من الذئاب..!).

الماعز يصيح.. يطأطئ رؤوسه.. يلوذ بالأشجار والصخور.. الجدي المقرور يجثو على ركبتيه ليرضع.. يصيح صيحة مكتومة أثناء الرضاعة وهو يدفع الثدي بقوة.. ترفع أمّه رِجلها بانزعاج.. تبتعد.. يقف الجدي بركبتين موحلتين.. يبتسم جبرين: (حتى ثدي الأم يحتاج

إلى توقيت مناسب).

تثغو شاة.. يجفل الماعز.. تقفز الكلاب.. يلتقط جبرين عصاه.

2

... يرتكب الذئب الخطأ القاتل.. يتجه ناحية الحرث.. الكلاب تشكّل خلفه نصف دائرة.. قوساً مكوّناً من خمسة كلاب.. اثنان من كل جهة.. الخامس في الخلف.. ليست هناك إمكانية للانعطاف.. الأرض مكشوفة.. المخالب تغوص في الوحل.. الكلاب تأمل أن تنتهي المطاردة قبل تجاوز الحرث.. الذئب يرى أن الحرث لا نهاية له.. كلب المؤخرة يكاد يلمس ذيل الذئب.. كلبا الميمنة يضيّقان المسافة لإبعاده عن طرف الغابة.. كلبا الميسرة يوسعان المسافة.. تكتيك كاد يؤتي أُكله.. لولا أن الذئب ـ بقفزة أخيرة يائسة ـ تجاوز خطوط الحرث صافعاً كلب المؤخرة بقطعة وحل.. يعرف أنه لم يعد يملك القدرة على صعود السفح.. خياراته تتقلّص في موت المسافات.. خطوة.. أو قفزة قصيرة فقط تحول بينه وبين خمسة أفواه مدجّجة بالأنياب.. يصعد.. لم يسمع في حياته الذئبية كلها أنفاس الكلاب ولهاثها بهذا القرب.. في أعلى السفح تظهر صخرة كبيرة.. تركت عليها الشتاءات المتعاقبة خطوطاً داكنة.. يلوذ بها.. تحاصره الكلاب.. يقعي.. ظهره للصخرة.. أنيابه

تطقطق.. أرجله بلون الوحل تحت السيقان الرمادية.. المحاصِرون يكتفون بالهرير.. ودسّ ذيولهم بين أرجلهم.. يراقبون الأنياب المطقطقة.

3

... يصل جبرين.. تتجرأ الكلاب.. ينهرها: (يا لك من كلاب حقيرة.. خمسة ضد واحد؟! هذا ليس عدلاً.. وأنت يا مولانا.. كيف أوقعت نفسك في هذا المأزق؟ ألا يُفترَض أنّك تختن أبناءك في هذه اللحظة؟ أو.. ربما تكون قد ختنتهم بالفعل.. وتعمل على صُنّع وليمة بالمناسبة.. يا لها من أنياب.. جعلت هذه الزمرة القذرة تدس ذيولها.. معها حق.. الواحد حين يخاف ينتابه القلق على ذيله!).

فجأة.. يتحرّك السفح.. كما تفعل السفوح أحياناً أثناء المطر.. تنهار الصخرة.. تنقلع.. تتدحرج.. تبتعد الكلاب.. تواصل الصخرة طريقها.. مصحوبة بصوت تكسّر الأغصان.. يتتبّعها جبرين بنظره حتى تستقر في قاع الوادي.. يلتفت.. كان الذئب قد توارى.

4

... يفكر جبرين: (عجيب.. هذه الصخرة نابتة هنا منذ عشرات أو ربما مئات السنين..! أليس غريباً أنني أشعر بالارتياح لإفلات الذئب..؟!).

يلحق بأغنامه.. يُمسك بطرفي العصا فوق كتفيه.. يصفر.. يبتسم: (لماذا لا أستطيع أن أخفي إعجابي بالذئاب التي تفترس شياهي.. بينما أحتقر الكلاب التي تحرسها..؟!).

***

(2015)

خلوّ من السوابق..

... يضع شهادة الخلوّ من السوابق في جيبه.. ثم يصفع الموظف الذي أخّر استخراجها ستة أشهر..!

***

(2015)

زغاريد في العتمة

1

... فوق منصّة الشنق الخشبية في مدخل المعتقل يتأرجح جسد.. تحت قدميه الحافيتين جنود يلعبون الورق.. تزعجهم النسمة الخفيفة التي تؤرجح الجسد.. وتجعل اللوح فوق رؤوسهم يصدر صريراً بإيقاع ثابت.. مستفِزّ.. وفوق ذلك تمنع الورق من الثبات على البطّانية السوداء الخشنة.

2

... تصرخ امرأة في العتمة.. يعقبها صمت.. يواصل الجنود لعب الورق.. تصرخ المرأة صرخة أخرى.. طويلة.. راعبة.. يتردد صداها في الظلمة.. يصرخ طفل صرخته الأولى.. ترتفع زغرودة مبحوحة.. تجاوبها زغرودة قصيرة مخنوقة من مكان ما.. ثم زغرودة طويلة رنّانة من الطرف

البعيد.. تضج العتمة المسيّجة بالأسلاك والعساكر بالزغاريد.. يتوقف الحرّاس عن لعب الورق.. ومن خلف الأسلاك الشائكة ينهض قمر.. راسماً على أرضية المنصة الخشبية ظل الجسد المتأرجح...

***

(2015)

الدبّابة

... مساء ربيعي.. تمر الدبّابة.. بضجيجها.. ودخانها الأسود.. وسط الدرب المؤطّر بأزهار الربيان الأبيض.. الدرب الربيعي لا يتّسع للدبّابة.. كانت تدوس الأزهار على الجانبين.

الحمار الذي يرتع فوق الربوة المحاذية للطريق يرفع رأسه.. يمد أذنيه باتجاه الدبّابة.. الغراب الجاثم فوق الغصن الأجرد لشجرة العرعر ينعق نعقتين متتاليتين.. المرأة التي تحلب بقرتها تُلقي نظرة من فوق كتفها دون أن تتوقف عن الحلْب.. الأطفال يواكبون الدبّابة صارخين.. القرويون المصطفّون على حافة الطريق يرفعون قبضاتهم.. يهتفون.. يلتقطون الصور التي تحتلّ خلفيّاتها الدبّابة.

... تتوغل الدبّابة.. تقتحم خراريفهم الليلية.. لم يأتِ أحد على ذِكْر شجرة اللوز المزهرة على كتف الطريق.

***

(2015)

بوبريص

1

... ضباب الصباح يغادر الوادي.. لازلت أرى ذيوله المتبقية التي بترتْها الريح.. أستدفئ فوق الصخرة التي أقطن تحتها.. أتماهَى مع لونها الكامد.. الدفء يسري إلى جسدي المبلّل.. المتعة دائماً لها منغِّصوها.. ترصدني قبّرة متوّجة تحلِّق فوق رأسي مباشرة.. لا وقت للتفكير في الخيارات.. ها أنا أتخلّى عن ذيلي.. أبتره.. ذيلي يقفز.. يلفت انتباه القبّرة.. تلحقه.. ألوذ بأسفل الصخرة...

2

... ماذا؟ هل تعيّرونني بأنني بدون ذيل؟ أبتر؟ كانت خياراتي محدودة.. الذيل أو الرأس..! ماذا يفعل أحدكم إذا خُيّر بين ذيله ورأسه؟ غبّي من يتوقف لحظة واحدة للتفكير في ذلك.. هذا ليس خياراً.. بالإمكان دائماً الاستغناء عن

الذيول من أجل الرؤوس.. بشرط ألاّ تكون تلك الرؤوس فارغة.. وإلاّ فإنكم ستخسرون ذيولكم من أجل لا شيء.. الذيول لا تخلو من فائدة.. على كل حال.. أنا لست مثلكم.. سينمو لي ذيل جديد.. وفي انتظار ذلك ها أنا أتوارى تحت صخرتي الحصينة.. بعيداً عن مناقير ومخالب المخدوعين بالذيول المتقافزة.

***

(2015)

الكلاب..!

... المذيع.. في نقل مباشر.. من قلب الحدث.. يصرخ.. وهو ينظر إلى الكلاب في رأس الشجرة: (انظروا أيها السادة.. المسألة مسألة سياق.. إذا تركتم الكلاب في مراح الأغنام أو القمامة فإنها تنبح كعادتها.. أمّا إذا رفعتموها إلى أعالي الأشجار فسوف تغرّد.. أنصتوا جيداً يا سادتي إلى هذه الجوقة المغرّدة)..!

منذ ذلك الحدث الأكبر ونحن نرفع الكلاب إلى أماكن العصافير..!

***

(2015)

حارس الصخرة

1

... بعضنا وصل إلى هذه الدنيا فوجده فوق صخرته.. لا أحد يتذكّر منذ متى وهو يقف مثل الفزّاعة فوق هذه الحيطة.. ما الذي يجعل شخصاً يكرّس حياته الفانية للعيش فوق صخرة..؟ ما الذي يحرسه..؟ هل هذه الصخرة الجامدة ـ التي خدّدتها الأمطار ـ تستأهل كل هذا العناء..؟ لعل تحتها كنزاً مطموراً.. فالصخور الكبيرة التي تسد أفواه الأودية لا تخلو من الأسرار.. ولكن ما فائدة الكنوز التي نستهلك أعمارنا في حراستها فقط..؟! أسئلة نطرحها على أنفسنا مراراً حتى مللناها.. دون أن نعثر لها على أجوبة.

2

... يستلقي غفير الحيطة في آخر الليل.. تنتظم أنفاسه.. وما إن يضع أحدنا أصابعه على الصخرة حتى يلذعه السوط

الطويل في الظلام.. (ألم أقل لكم بأنني أملك عيوناً في الظلام..؟! لدي عيون حتى في قفاي..؟!).. ذلك جعل أهل قريتنا يخيفون به أطفالهم الذين يرفضون تناول الدواء..!

حتى أثناء المطر لا يغادر صخرته.. يقف مقروراً مرتجفاً.. ينحني للعاصفة.. حين تثلج يتحوّل إلى تمثال أبيض.. في تلك اللحظة نقترب.. نتأمل الوجه الجامد.. البارد.. وبمجرّد لمسة خفيفة للصخرة التي يدثّرها الثلج.. ينتفض التمثال.. يطرقع السوط الطويل وسط انهيار جليدي..!

3

...يقول بكثير من الزهو وهو يقلب شفته: (صخرتي.. حيطتي)..! في الأيام المشمسة يقوم ببعض الحركات البهلوانية والشقلبة.. حين يعتريه الملل يدلّي رجليه ليرينا حذاءه من الأسفل..!

عندما يكون في مزاج رائق ينادينا.. يسمح لنا بأن نلتقط معه الصور.. تتحوّل الصخرة في بعض الأيام إلى محجّ.. وتحتلّ صخرته خلفيّة صورنا.

لا أحد يجرؤ أن يقترب منه أكثر مما ينبغي.. إلاّ حين نأتيه بوشاية.. لذلك كنّا نختلق الوشايات: (جاري الذي على يميني بصق وهو ينظر إلى صخرتك).. (الكلب المبقّع بالأحمر الذي مرّ بالقرب من صخرتك هذا المساء لم يهزّ ذيله كما تفعل الكلاب الأخرى).

4

... وجوده الأبدي فوق صخرته الناتئة في حلق الوادي بدا يبعث على السأم.. يشكّل استفزازاً.. (هناك خطأ ما ينبغي تصحيحه).. جُملة لم نعد نردّدها همساً.

5

... نتجرّأ.. نقذفه من بعيد بالحجارة.. والأحذية.. نقترب.. يفرقع السوط.. ندور حول الصخرة.. نحاصرها.. نلوّث جدران الصخرة بالشتائم.. والكتابات الداعرة.. رأس السوط الذي يشبه لسان الأفعى يلسعنا.. يترك ندوباً سوداء على أصابعنا.. ندفع الصخرة بأكفّنا.. بأكتافنا التي يلهبها السوط.. لكنها لا تتزحزح.. نابتة.. نأتي بجرّافة ضخمة.. فمها واسع بأسنان مدبّبة.. لا يُجدي معها السوط اللاسع.. تنطح الصخرة.. فتتمايل.. تميد.. تترنّح.. تتزحزح.. تنقلع.. تتدحرج.. ترتفع الزغاريد.. صيحات التكبير.. الصراخ.. تنحدر الصخرة مع مجرى الوادي داهسةً في طريقها شجرة الشماري المثقلة بعناقيد العجّور.. تتوارى الصخرة مع منعطف الوادي.. تغيب في ظلام الغابة.. ونتنفس بعمق...

6

... لا شيء.. لا شيء تحت الصخرة سوى بعض الحلازين.. والخنافس.. وبوبريص.. ثم نشمّ رائحة كريهة..

نتلفّت.. نتصفّح وجوه بعضنا تحت وطأة الإحساس بالحرج.. من الذي أطلق كل هذه النتانة..؟! وفجأة.. تتشقق الأرض.. تتصدّع.. تنفجر نافورة سوداء من مقلع الصخرة.. يندلق السواد اللزج.. على الوجوه.. على الأيدي.. على الملابس.. وتسيل مع مجرى الوادي العفونة المعتّقة منذ ألف عام...

7

... نتبادل اللوم.. والشتائم.. نتقيّأ ونحن غارقون في اللزوجة.. وفي حلق كل منّا سؤال: (أهذا هو الكنز الذي أفنى حياته لحراسته بسوطه الطويل الحارق..؟!).

8

... لا أحد يعرف أين اختفى حارس الصخرة.. بعضهم قال بأنه انجرف مع صخرته.. بعضهم قال إنه ذهب إلى الوديان المجاورة.. بعضهم أكّد إنه لايزال موجوداً في وادينا.. أخذنا نبحث.. نفتش.. نمشّط كل حنايا الوادي.. وحتى تحت ثيابنا.. أجسادنا تتنمّل ونحن نحس بأنه لا يزال داخل معاطفنا المبلّلة بسواد المجارير...

***

(2015)

القنّاص

1

... يعتريه الملل وهو يسمع صخب الحياة في الحقول المجاورة.. يحسّ فجأة بعدم جدوى ما يفعله.. يلتقط بندقيته ذات المنظار.. يتأمّلها.. يضيّق عينه وهو ينظر في فوهتها السوداء.. لم يعد يذكر عدد الأرواح التي قنصها.. قال يحدّث نفسه بصوت مسموع وهو ينظر إلى الحقول المنبسطة على مدّ البصر: (آن لهذه البندقية أن تتحوّل إلى منجل).

2

... الحدّاد يقطّع البندقية.. يلوي.. يلحم.. يسنّن.. يمدّ له المنجل.. يتناوله بفرح ظاهر.. يحصد في الفراغ.. يرفع إبهامه إلى الحدّاد.. يجذبه نداء الحقول الضاجّة.. التي ترتفع فيها أغاني الحصاد.. يخطو.. يستوقفه الحدّاد.. يضع يده على كتفه.. يهمس: (قابيل قتل شقيقه بجمجمة)..!

***

(2015)

رسالة من أسير

... اطمئني يا أمي.. أنا بخير.. ستنتهي الحرب يوماً.. وسيُطلق سراحنا.. فليست هناك حرب تدوم إلى الأبد.. أحوالي الآن أفضل.. فالسجّان الذي كان يصفعني كل صباح صفعتين.. يبدو أن الملل قد أصابه.. فأصبح يصفعني صفعة واحدة فقط.. ألم أقل لكِ بأنّ الأمور ستتحسن مع مرور الوقت..؟!

***

(2015)

هَنيّة...

... قبل الفجر.. تغادر (هنيّة) سريرها البارد بعد نوم متقطّع.. تتسلل حافية إلى مطبخ ضرّتها.. تضع الملح في عُلبة السكّر.. والسكّر في المملحة.. تعود.. تستلقي على سريرها.. تتثاءب.. ترهف السمع.. وهي تحس بأن هذا اليوم سيكون مليئاً بالمسرّات.. رغم الريح الماطرة التي تصفع النافذة.

***

(2015)

أناقة...

... يكوي بذلته العسكرية جيداً.. حتى أن السروال يكاد يقف لوحده! يُلمّع الحذاء.. يمسح الكاب بورق ناعم.. يضع الأوسمة والأنواط الملونة.. يصفّها فوق القلب.. يرش العطر على جانبي عنقه.. يستدير نصف استدارة أمام المرآة.. يشعر بالرضى عن خلفيته.. يلتقط بندقيته.. يخرج.. ليلتحق بفرقة الإعدام..!

***

(2015)

زيارة تفقّدية

... زارنا الجنرال.. حين زار قرى الجنوب.. بهرتنا هيأته الصارمة.. الأناقة العسكرية لها سحرها.. عصا الشرف تحت إبطه.. أحياناً يشير بها إلى شيء ما فتلمع تحت الشمس.. كنّا نتبعه.. حرّاسه يشكّلون خلفه نصف دائرة.. حين انحدر مع السفح الحجري.. توقّفنا.. سرت في أجسادنا رِعدة.. تغضّنت وجوهنا.. فقد كان الجنرال ـ بكامل أناقته ـ يتبختر فوق القبور القديمة..!

***

(2015)

الظل

ثلاثة مسافرين يسيرون خلف بعضهم فوق حافة الكثيب الرملي.. شمس العصر تمد فقط ظلّين طويلين متعرجين.. يلتفتون إلى بعضهم: من منّا لا ظل له..؟!

***

(2015)

غربة...

1

... حين كان يسرح مع الأغنام.. كان (طاهر) يجلس على صخرة.. يدندن بإحدى الغناوي.. في فواصل الغنّاوة يقوم بإلقاء الحجارة لردّ الشياه.. يصرخ عليها أحياناً.. تتوارى أخته خلف شجرة البطّوم وهي تبتسم حتى يتم أغنيته: (عزيز هو دواي وداي ... ومشكاي وطبيبي وعلّتي).. ثم تتنحنح.. تنادي عليه من بعيد وهي تحمل الغداء.

2

... في القسم الداخلي يُنصت المشرف الليلي على العنابر أثناء فترة المذاكرة.. يهزّ رأسه تحت نافذة العنبر مع إيقاع الغنّاوة القادم من غابات الأودية: (علينا تحوز عزيز ... هذا عليش يا ليل كارهك).. ثم يفتح المشرف الباب.. يُشهر سبّابته في وجه (طاهر):

ـ يا بني آدم.. هذا وقت غناء؟! وجهك للساس.. وعلى رِجل واحدة.

يلتفت المشرف إلى الطلبة:

ـ يا سلام.. براءة.. غارقين في المذاكرة..!

3

... في رحلاتنا الربيعية.. يبسط كفّيه فوق اللهب المتراقص.. يستند بظهره إلى ساق شجرة العرعر.. يرفع وجهه إلى النجوم.. يخاطب الليل: (أَرْخَيت يا الليل جناح ... وارْخَوا اعْزاز فينا نارهم).

4

... في المعسكر.. يتمهّل ضابط الخفر فوق الدرج.. ينصت ـ وهو يتمايل ـ إلى صوت (طاهر) القادم من خلف الأسلاك الشائكة: (الله يسامحك يا ليل ... لولاك يقتلنّا همومنا).. ثم يدخل.. يضع يديه على خاصرتيه في مواجهة طاهر:

ـ أطلع للساحة وهرول يا حيوان.. توّا نخلّيك تذوق الهموم.. وخلّي الليل ينفعك.. المفروض العقوبة جماعيّة.. الحسنة تخصّ.. والسيئة تعُمّ.. لكن الليلة السيئة تخصّ..!

5

... بعد ساعة من الهرولة.. والمشي على ركبتيه فوق الحصى المدبّب.. يطلب الذهاب إلى الحمّام.

ـ معك خمس دقائق.

ـ ... ...

ـ اسرع يا حيوان.. تبي تبات في الحمّام؟!

ـ ... (صوت انسكاب الماء).

ـ دقيقة ونفتح عليك الباب.

ـ ... ...

... ترك (طاهر) نافذة مفتوحة على الليل.. وورقة كتب فيها: (سيدي الضابط.. لا يمكنني البقاء في مكان لا أستطيع الغناء فيه).

***

(2015)

الباهت...

... قبل أن يخرج ينظر في مرآة المدخل.. أشعث.. أشيب.. ألوان معطفه ناصلة.

...في الغابة المجاورة.. خلف شجرة القندول المزهرة.. يترصد الحرباء حتى تغفل.. ثم يسرق علبة ألوانها.

***

(2016)

جيران...

إلى الصديق عبدالرحمن مرشود

... جارتنا تنشر فرشتها المزخرفة.

تتأمّلها أمّي.. تكزّ على أسنانها.. تدخل.. تُسقط فرشتها المطوية فوق الدولاب.. تُسقطها بالمكنسة بعد عدّة محاولات وشتائم طالت حتى المكنسة.. ثُم تنشرها فوق الجدار.. تثبّتها بالكرسي.

جارتنا تنشر فستانها الأحمر المشجّر.

تفتح أمّي دولابها.. تستعرض سريعاً كل فساتينها.. تلتقط الأبيض المزخرف بأوراق القيقب.. تنشره جاعلةً تكرمشات أسفل الفستان من جهتنا.

جارتنا تنشر ثلاثة وجوه وسائد مشغولة الأطراف بأهداب ذهبية.

أمّي تُعرّي أربع وسائد.. تنتزع وجوهها الملونة.. تُسقط أحد الوجوه الباهتة.. تنشر باقي الوجوه إلى جانب الفستان.

أمّي تقف مترقّبةً الخطوة التالية لجارتنا.

أتأمل الغسيل.. أسألها:

ـ أمّي.. لماذا لا يقطر غسيلنا مثل غسيل جارتنا..؟!

***

(2016)

على حافة الوادي

(إلى أحمد عبدالجليل الصعقار)

... صنوبرة على حافة الوادي المؤطّر بجدار صخري.. فوقها غراب ينعق.. تحتها كلب أبيض ينبح.. فوق الحافة المقابلة شمس تتهيأ للغروب.. تُريق الألوان في أطراف الغيم.

الكلب أكثر حماساً.. يوجّه نباحه إلى الأعلى.. يحاول التسلّق.. يكتفي بسنّ أظافرة على الساق الخشنة.

غيمة صغيرة متمهّلة.. تُبلل المشهد.. تقطر أغصان الصنوبرة.. يتوقف الغراب عن النعيق.. ينفش ريشه.. يتوقف الكلب عن النباح.. يلعق قطرات المطر التي تجمّعت في تعرّجات الصخر.

المزنة الصغيرة تتجاوز الوادي.. نصف الشمس

المرتكز فوق الحافة المقابلة يصبغ المشهد بالأحمر.

يرفع الكلب رِجله.. يبول على أسفل الصنوبرة.. يحرث التراب بأظافره.. يلوي عنقه.. يتوارى في عتمة الغابة.

ينعق الغراب نعقتين طويلتين.. وهما تعنيان على الأرجح: (هذا أقصى ما يستطيع أن يفعله كلب.. مخلوق لا يملك جناحين لا حيلة له إلاّ النظر إلى الأعلى).. ثم يطير باسطاً جناحية فوق تعرجات الوادي.. يلتفت إلى قرص الشمس ينزلق بكامل استدارته وسط موكب من الألوان.. ينعق بزهو: (أن يكون لك جناحان يعني أن ترى الشمس بكامل بهائها.. فيما الآخرون تلفهم العتمة مبكراً).. ينظر إلى الأسفل.. الكلب الأبيض ينحدر مع الوادي.. خط أبيض قصير يظهر ويختفي في فجوات الغابة.

***

(2017)

العروس

... تحت رنين الزغاريد تتبختر.. تتثنى.. تنتزع التأوهات.. تحاول إخفاء قلقها بابتسامة وهي تنظر إلى السماء التي بدأت ترذذ.. يبدو الممشى من باب السيارة إلى باب البيت لا نهاية له.. قلقها يتحول إلى خوف.. قطرة مطر فوق الجبين.. تتريث فوق الحاجب قليلاً.. تنحدر.. تتلون بالأزرق والأخضر.. تتجاوز العين.. يختلط الأزرق والأخضر بالأسود.. ترسم خطاً داكناً فوق أحمر الشفاه.. العضة الخفيفة على الشفاه تحرق المراحل للقطرة المنحدرة نحو العنق.. يشتد رخّ المطر.. يتبرقش الفستان الأبيض بالأصباغ.. في تلك اللحظة لم يشأ أحد أن يستذري من المطر.

***

(2017)

مسعودة

... يوقفني.. يأمرني بالاقتراب.. يبتسم.. يغمز.. يطلب منّي أن أقبّل مسعودة..! تصدر همهمة جماعية من الفصل.. وشهقات.. يحمرّ وجهي.. تتسارع دقات قلبي.. يسقط رأسي على صدري.. يصرخ.. يأمرني أن أرفع وجهي.. التفتُ نصف التفاتة إلى أدراج البنات على يميني.. تخفض مسعودة نظرها.. يصعد الدم إلى وجهها.. تعض على شفتها.. تلتفت ناحية النافذة.. يضع قبضته فوق رأسي.. يدير وجهي ناحيته.. يقهقه: (عقلك مشى بعيد).. يقرّب العصا من شفتي: (هذي مسعودة.. الطويلة الرقيقة الليّنة الحرّاقة).. في تلك اللحظة أخذت أقبّل العصا.. وأنا أشعر بارتياح.. رغم العرق البارد المنسرب من بين كتفيّ.

***

(2017)

الخَلْطة...

... على واجهة المحل لوحة عريضة مضاءة.. بزخارف إسلامية.. في وسطها بخط زخرفي كبير: (عطارة التقوى).. المحلّ مزدحم.. لم أجد موضع قدم.. سألت العامل السوداني من بعيد:

ـ وين الحاج مجيحيد؟

ـ في ألمانيا.

ـ خير إن شاء الله؟

همس واضعاً كفّيه كقمع حول شفتيه:

ـ يعالج.

ـ يشفيه الله.

... قابلني في الداخل مُلصَق عريض مزخرف.. تتوسطه

علبة أسطوانية.. مكتوب في أعلاه بخط أحمر عريض:
(خلطة مجيحيد.. تشفي من جميع الأمراض)..!

***

(2016)

عجاج

... عجاج يسد الأفق.. يقترب.. تنعدم الرؤية.. صوت كوابح.. اصطدام.

ينجلي العجاج.. يغضّنون وجوههم وهم ينظرون إلى مصباح السيارة المهشّم.. يحسبون تكلفة التصليح.. ويلعنون الحمارة التي قُتلت على حافة الطريق.. وجحشها الرضيع يقف عند رأسها.

***

(2017)

الصورة

... أراد تلميع صورته.. فبصق عليها.. ومسحها بطرف كُمّه!

جوع

مات الثائر.. كان منشغلاً بالثورة لدرجة أنه نسي أن يأكل..!

دوائر

إلى الشاعر: مفتاح العلواني

... ليل.. برد.. الأم تتربع.. تحتضن طفلتها.. تطوي ذراعيها حول الجسد الصغير الدافئ.. تشبك أصابعها أسفل الظهر الليّن.

الجارات يغلقن الدائرة حول النار.. اللهب يتراقص على وجوههن.. ظلالهن تهتز خارج محيط الدائرة.. تختفي رؤوسها في العتمة.. يشرعن في الكلام عن الحرب.. الطفلة ترتعش.. تدس رأسها في صدر أمّها.. يتزاحمن في الحديث.. الطفلة تتكمش.. مع تقدم الحرب.. الطفلة تزداد التصاقاً.. تذوب.

حين فرغن من سرد فظاعات الحرب كانت الطفلة قد

تلاشت.

تخبو النار.. تنتبه الأم إلى أصابعها المتشابكة على لا شيء.. تجفل.. تشهق.. تصرخ.. تحس بحركة ما في أحشائها.. تتحسس بطنها.. فتكتشف أنه قد انتفخ..!

***

(2017)

إناء الشاي ذو الزهور الحمراء

1

... لم يفهم الزوج لماذا لاتزال زوجته تصر على استعمال إناء الشاي القديم.. على الرغم من أنه اشترى واحداً جديداً منذ شهر.. الإناء القديم من عمر ابنتهما الوحيدة (حوريّة).. غير أن حوريّة أزالت الشرائط الحمراء من ضفائرها.. شرعت تمشي على أطراف أصابعها.. استدارت أشياء كثيرة في جسدها.. بدأت تتبادل الرسائل مع ابن الجيران.. على الرغم من أنه لايزال يمسح أنفه بطرف كُمّه.. أمّا إناء الشاي فقد بلغ سن التقاعد منذ زمن.. علاه السواد.. فمه مفتوح.. أُذنه مقصوصة.. رقبته ملتوية.. آثار سقطاته ظاهرة على جسده المحترق.

... في أحد الأصباح يطفح كيل الزوج.. كما نقول في لغتنا الجاهزة.. يصرخ في وجه الزوجة.. إلى درجة أن

الجيران سمعوا الصرخة.. وشرعوا يدقّون الباب بعنف...

ـ لا إله إلا الله.. من اللي ميّت يا حمد؟

ـ البرّاد.. شبع موت..! شريت برّاد جديد يا حاج صالح تشوف فيه وجهك.. والسيدة زاهية مازالت متمسكة بعقاب برّاد محروق أسود أنود.. حتى الكلب ـ حشاك ـ يعافه.

ـ كل هذه الصرخة على صبح الله من أجل برّاد.. فجعتني.. وين البرّاد الجديد يا زاهية.

تحك زاهية خلف أذنها.. تدخل بتثاقل إلى المطبخ.. تحضر البرّاد.

يشهق الحاج صالح:

ـ الله الله.. عندها حق.. برّاد أبيض مزخرف بالورد.. وتبيها تحرقه بالنار؟!

ـ يعني حرام وإلاّ عيب كان شريت لها حاجة سمحة؟

ـ لا.. لا سامح الله.

ثم يضيف وهو يسترق النظر إلى زاهية:

ـ أنت طول عمرك جيّاب للسمحة.

تبتسم زاهية.. يدغدغها الإطراء:

ـ والله يا حاج صالح البرّاد الجديد خسارة في النار.

يقول حمد وهو يفتح ذراعيه:

ـ أيش الحل يا حاج صالح؟ يعني كل يوم الواحد يصبّح في برّاد محروق؟

ـ لا.. عندي حل وسط.. زاهية تطبخ الشاهي في البراد القديم.. وتصبّه في البراد الجديد.. يعني أنت يا حمد ما تشوف إلا البراد المزخرف قدّامك فوق السفرة.

ـ امممممم.. الله غالب.

يتهلل وجه زاهية.. تحتضن البرّاد المزخرف.. تمسحه برفق بطرف ردائها.. تنفخه من غبار غير مرئي.. ترفعه بينها وبين المصباح.. يُشرق في يدها.. تتأمل زهوره الحمراء.

2

... تزوجت حوريّة.. مات حمد.. أصبحت زاهية تقوم على أربع.. تستند إلى العكاز.. تتحسس الحائط.. وظل البراد الأبيض ذو الزهور الحمراء يتربع على السفرة.. ينير عتمة الصالة.

***

(2017)

سلك شائك

1

... يلتقيان في الوادي كل ليلة.. قبل طلوع القمر.. أو بعد غيابه.. في النهار يختلقان الأعذار للقاء.. هي تحتطب.. هو يرعى ماعزه.. ينزل كل منهما من سفح إلى حلق الوادي.. يجمعان صدفات الحلازين الملونة.

2

... فجأة تشتعل الغابة.. يمتلئ الوادي بالعساكر.. أسلاك شائكة.. وبنادق.

3

... يُولَد القمر فوق الأسلاك الشائكة.. تلتمع أشواكها ببريق خافت.. تلقي ظلالاً باهتة.. شائكة.. تتشابك مع ظلال الحرّاس.

4

... يتحولان إلى حلزونين ملونين.. يسافران إلى بعضهما.. ينزل كل منهما من سفح.. في النهار يختبئان من صهد الشمس.. في الليل يستأنفان الزحف.. تلتمع صدفتاهما الملونتان تحت القمر.

5

... بومة فوق السد الحجري القديم.. تُفلّي ريشها.. تراقب الحلزون الملون.. يلمع بفعل الطل.. تلتقطه.

6

... اطمئنّوا.. الحكاية لا تنتهي هنا.. يمكن للحكايات أن تُستأنف دائماً.. هذا ليس حلزوننا.. فالوادي يزدحم بالحلازين.

7

... بعد سنة.. في أحد الأصباح الندِيّة يلتقي الحلزونان.. يلتقيان فوق الصخرة تحت السلك الشائك.. قطرات الطل في الأسلاك الشائكة تلمع تحت الشمس.. تُسيّج الوادي بالبريق.. يلمسها.. تتحسسه.. يخشيان أن تدوسهما الأحذية الخشنة.. أو تلتقطهما البومة.. يلوذان بالصخرة.. تزحف.. يتبعها.. يتواريان.. يبتعدان.. يوغلان.. حتى

يخفت لغط العساكر.. تاركين فوق الصخرة درباً لامعاً.. يتلاشى في التجاويف المظلمة.

***

(2017)

شاهد القبر

1

ـ أبي.. لماذا وضعت صخرة طويلة على قبر أمّي؟

ـ إنه شاهد القبر.

ـ وعلى أي شيء سيشهد؟

ـ نعرف به القبر.

ـ وماذا لو نبشت الثعالب قبر أمّي؟ هل سيمنعها؟

ـ لا.

2

رأيتهما في الغابة متلبسَين.. أحسست برغبة في التقيؤ.. قالت:

ـ اسكت.. وسأعطيك كل ما تريد.

ثم أدارت لي ظهرها لأمسح عنه القش العالق.. كررت:

ـ سأعطيك كل ما تطلب.. فقط اصمت.

ـ مثل شاهد القبر؟

ـ وهل تعرف شاهد القبر؟!

ـ نعم.. أعرفه.. ذلك الذي لا يمنع الثعالب من نبش القبور.

***

(2017)

أسود.. أخضر

1

... بعد ذهاب الزوج إلى سوق القرية الأسبوعية تشرع في غسل الملابس.. فالأيام الدافئة في شتاء الجبل قليلة.. تنشر غسيلها على الحبل الممدود بين شجرتين.. تنظر إلى امتداد الطريق الترابي.. خطّان متوازيان يلتقيان عند غبش الأفق.. طفلتها تطارد فقاعات الصابون.

2

... لحظة شروق الشمس توقفه سيارة سوداء رباعية الدفع.. تنزل منها أربعة خيالات تتحرك تحت السواد.. يبلع ريقه.. يسمع أحدهم في مؤخر السيارة يقول:

ـ عشر شياه.

ـ ذلك فضل الله.. خذوا الشياه إلى بيت المال.

ـ وماذا نفعل بهذا المرتد؟

يحك رأسه بالسكين من فوق القناع الأسود.. ثم يرمي السكين لأحدهم.. شفرة السكين تبرق تحت الشمس وهي تدور في الفراغ.

3

... بعد الضحى تجمع الغسيل.. تُمرر أصابعها فوق قميصه المخطط بالأخضر.. قميصه الذي ارتداه ليلة العرس.. تشمّه.. ومن تحت حبل الغسيل ترقب الأفق الفارغ.

***

(2018)

زيتونة الوادي

(1)

... في طريق عودتنا من المدرسة.. نربط الحبل ـ الذي خبأناه في الصباح ـ في فرع الزيتونة الكبيرة المنتصبة على حافة مجرى السيل.. زيتونة الوادي.. كان يتدلى.. يتأرجح في الريح.. تحفر عقدته خطاً متعرجاً في التراب.. ننادي على الجرو الأبيض الذي أقعى خارج الظل.. ينظر إلينا متشككاً.. أخرج كيس الإفطار من حقيبة المدرسة.. أفتح الكيس.. ينصب الجرو أذنيه لخشخشة الكيس.. أضع قطع السردين على الصخرة.. الزيت يسيل من أطرافها.. يرفع الجرو أنفه.. يقترب زاحفاً وهو يهز ذيله.. نضع الحبل في عنقه.. و.. نشنقه..!

نضحك.. نلمسه.. نشهق.. نجعله يدور في الفراغ.. يُصدر حشرجة.. قطرات بوله نقاط داكنة على التراب.. نلتقط حقائبنا على عجل.. نتلفّت في كل الاتجاهات.. ثم ننسلّ مع جرف الوادي تاركين الجرو يتأرجح في الظل.

(2)

... في اليوم التالي.. معلّمنا يوزع أوراق امتحان الأمس.. كانت مليئة بالتشطيبات الحمراء.. يأمرنا بالوقوف على رجل واحدة إلى جانب السبورة.. وجوهنا للجدار.. من خلف ظهورنا نسمع صوت العصا الرقيقة وهو يجرّبها في الفراغ.. صوتها كالريح العاصفة.

(3)

... في المساء.. كنت مع الأغنام.. معلّمنا يتمشّى مع الطريق الترابي.. أحسست بوخز في يدي المتقرحة.. يقترب.. أبادره بالتحية.. يتفحص شياهي.. أبتسم:

ـ انتظر.. نحلب لك شاة.

... يمسح شفتيه بلسانه من أثر رغوة الحليب:

ـ الله يسقيك من بير زمزم.

يمضي.. يبتعد.. قبل أن يختفي أصيح خلفه:

ـ يا أستاااااذ.. من وين قطعت العصا الرقيقة الحرّاااااقة؟

يُشير بإصبعه بعيداً ويصيح:

ـ من زيتونة الواااادي...!

***

(2018)

العكّاز

(1)

... شجرة العرعر مائلة تجاه القِبلة.. بفعل الشتاءات ورياح الشمال.. تنحني.. تتقوّس.. ينكشف اللحاء عن أجزاء من ساقها الخشنة.. روث ذئب فوق الصخرة المتكئة على الساق المتقشرة.. أدور حولها لأقتطع عكّازاً.. أتذكّر استئذاننا في الطفولة: (سامحيني.. نقطع منك غصن.. ينبّت لك ربّي في مكانه عشر غصان).. لم تترك فيها الريح شيئاً مستقيماً.. لعل انحناءها هو الذي جنّبها السقوط.. لا أستطيع رؤية أعلاها.. سأتسلق لعلي أجد العكّاز.

أضع رِجلي فوق أحد الأعواد الناتئة.. أضغط ببطء لأختبر متانته.. أصعد ممسكاً بأقرب غصن.. يتساقط الزنباع.. ينتشر فوح العرعر.. أسمع صوت أنين.. تكتكة.. طربقة خفيفة.. ألتفت.. أرى التراب ينقشع من فوق الجذر

الغائب طرفه بين الصخور.

(2)

... في المساء كانت شجرة العرعر تتكئ فوق ثلاث أرجل وسقالة.. وعدت أنا من غير عكّاز.

***

(2018)

رحلتان

(1)

... عدنا من رحلة التسوق للعيد من المدينة.. طيلة الطريق ـ ذهاباً وإياباً ـ كانت زوجتي تجادلني في الأسعار والألوان.. وتلعن الصناعة الصينية.. لم ننتبه حتى طلبت طفلتنا (أريج) أن تشرب.

(2)

... أتكئ على مرفقيّ وسط إطار النافذة.. بجانب الجدار (أريج) تحكي لصاحباتها عن رحلتها إلى المدينة:

ـ رأينا ناقة ترتع جنب الطريق.

ترد صويحباتها بشهقة جماعية:

ـ هاااااا.. ناقة!

ـ عيونها واسعاااااات.. كانت تمضغ الشوك.

ـ الشوك؟!

ألتفت إلى زوجتي في الداخل ترتب المشتريات:

ـ هل مررنا بناقة على الطريق؟

ـ لا أتذكّر.

أريج تواصل وصف مشاهداتها:

ـ وشفنا حصان أبيض يجري.. شعره طوييييييل يتحرك في الريح.

ـ واااااو.. واو.

أسأل زوجتي:

ـ هل رأيتِ حصاناً في طريقنا؟

ـ حصان؟ امممممم.. لا أذكر.

تواصل أريج سرد مغامرتها:

ـ في السوق لقينا قطّوس أصفر صغيّيييير.. وعيونه زرق.. قبل داست أمي على ذيله.

ـ حرااااام.. داست عليه؟

ـ لا.. قفز فوق الطاولة.

أستدير ناحية زوجتي ضاحكاً:

ـ هل تعلمين أنك كدتِ تدوسين على ذيل قط صغير داخل السوق؟

***

(2018)

المكحلة

... مستوحدة في ذيل الوادي تتشمس فوق عتبة بابها.. تظلل عينيها بكفها المنحنية وهي تحاول رؤية الدرب القديم الصاعد مع سفح الوادي.. الدرب الذي نحتته أقدام الرجال ذات شباب.. تنظر في المرآة الصغيرة الدائرية ذات المسند.. تزيح خصلة شعرها الأشيب من فوق خدها بأصابع مرتعشة بها أثر حنّاء.. تحاول وضع المرود في المكحلة.. يرتعش رأس المرود فوق الفوهة.. ينزلق مع جانب المكحلة عدة مرات.. تتنهد.. تغمض عينيها.. ثم تشرع في سرد الرجال الهابطين مع الدرب القديم.. تلتفت إلى ظلمة بيتها.. تسمع لهاثهم.. وخوارهم.. تدغدغها بذاءاتهم في أذنها.. تتمايل.. تشهق.. تمد ساقيها.. تعض شفتها.. يوقظها غراب عابر ينعق نعقتين متتاليتين.. تنحدر دمعتان.. تتعرجان مع التجاعيد.. تعود إلى المكحلة.. المرود المرتعش ينزلق دائماً خارج الفتحة.. ترفع المكحلة

أمام عينيها .. بينها وبين الضوء .. تحاول تثبيت يديها .. لكن المرود يظل ينزلق خارجاً .. تحاول التوقف عن التنفس حتى لا يرتعش المرود .. ومن خلف المكحلة يبدو الدرب القديم الخالي .. المتعرج مع سفح الوادي وقد قطّعه العشب .. وشحب في غبش الدموع ...

***

(2018)

العالِق

1

... أنظر في مرآة المدخل المستطيلة.. أدور دورة كاملة حول نفسي.. لائق هذا المعطف الأسود الذي أهدته لي زوجتي.. والشال الأزرق المتدلي طرفه على الصدر.. أقترب.. أزيل شعرة من فوق كتفي.. خارج الباب أرفع وجهي مستمتعاً برذاذ مطر الربيع.

2

... تتصل بي زوجتي بصوت مرتعش:

ـ آآآآ.. أين.. أنت؟

ـ في السوق.

ـ لا.. أنت.. لست في السوق.

ـ اووووو.. هل بدأتِ تشكين فيّ بعد عِشرة ربع قرن؟!

ـ لا.. لكنك.. لكنك لازلت هنا.. أعني في المرآة.. بمعطفك الأسود.. وشالك الأزرق.. تزيل بعض الشعرات عن كتفك..!

***

(2019)

الجار

... في انتظار عودته تراقب تعرجات الأفق كل مساء.. ترتكز على مشطي قدميها.. تفرحها استطالة ظِلال الأشجار.. كان الجار الأحب إليها.. فهو ـ في الليَالي الحالكة ـ من يضع لها السلك في الإبرة!

***

(2019)

منظور

... الخفاش المتدلي من سقف الكهف.. ينظر من وضعه المنكّس داخل العتمة إلى أشجار الضفة المقابلة.. ويتعجب: ((يا لهذا العالم المقلوب رأساً على عقب)..!

***

(2019)

الشفرة

... وقف خلفي.. لفّ يده اليسرى تحت ذقني.. جذبني إلى الوراء.. ثبّتني على صدره.. وضع الشفرة في وسط عنقي.. فقلت له: (لا.. لا أحب تحديد اللحية).

***

(2019)

الثَوب

1

... ... غربان الصباح تطير فوق الضباب.. أسمع خفق أجنحتها.. أغصان العرعر تقطر.. الماعز سبقني إلى المرعى.. أحك كفّيّ ببعضهما.. أنفخ فيهما.. رمى لي أبي أحد ثيابه.. رفعته من كمّيه.. كان واسعاً أكثر مما ينبغي.

2

... غربان المساء تطير فوق الضباب.. أسمع خفق أجنحتها.... أغصان العرعر تقطر.. بلل العشب يتسرب إلى حذائي.. الماعز سبقني إلى المراح.. أحك كفّيّ ببعضهما.. أنفخ فيهما.. عاد أبي من السوق.. رمى لي ثوبه بعد أن عدّله عند الخيّاط.. رفعته من كمّيه.. كان ضيقاً أكثر مما ينبغي.. قال ضاحكاً: (يبدو أنك شربت الكثير من الحليب في غيابي)!

***

(2019)

غبار

1

ـ ابحثوا لي عن شخص لا غبار عليه.. فلم يعد من السهل إرضاء الناس.

يقول الجنرال لمستشاريه.. ثم يقف.. يضع يديه خلف ظهره.. وينظر من النافذة.

ـ يا سيدي في صحرائنا هذه من الصعب أن نجد شخصاً لا غبار عليه.

فجأة.. تنفتح النافذة بدفقة هواء.. فيتطاير من فوق كتفي الجنرال الكثير من الغبار.

***

(2019)

إيقاع

... عجوز بوشم غابر تخطو ببطء منحنية فوق عكّازها..
تقف مطوّلاً وهي تنظر إلى البنات يتقافزن فوق الحبل..
صراخ.. ضحكات.. شعر يتطاير.. وأرجل تخبط الأرض..
تتنهد العجوز.. وفي قدميها ارتعاشة خفيّة مع إيقاع الحبل.

***

(2019)

الفِهْرِس

لحظة عابرة 009
المطر في المقبرة 011
الرتل 012
ثور الاستيلاد 014
وشوشة 017
القبة 019
الأبكم 021
الأيام الخوالي 023
زهرة الرينش 027
زينب 029
ونيس 032

الهلال 036
الشاهد 038
إحصاء 040
عذر 041
في الظل 042
على هامش المعركة 044
هشاشة 046
الطريق إلى السماء 048
كآبة جلالته 050
الكلب الراكض على حافّة الطريق 052
حس أمني 054
ضفدع الوحل 056
الذئب يختن أبناءه 059
خلو من السوابق 063
زغاريد في العتمة 064
الدبّابة 066
بوبريص 067

الكلاب 069
حارس الصخرة 070
القنّاص 074
رسالة من أسير 075
هنية 076
أناقة 077
زيارة تفقدية 078
الظل 079
غربة 080
الباهت 083
جيران 084
على حافة الوادي 086
العروس 088
مسعودة 089
الخلطة 090
عجاج 092
الصورة 093

جوع 094
دوائر 095
إناء الشاي ذو الزهور الحمراء 097
سلك شائك 100
شاهد القبر 103
أسود.. أخضر 105
زيتونة الوادي 107
العكّاز 109
رحلتان 111
المكحلة 114
العالق 116
الجار 118
منظور 119
الشفرة 120
الثوب 121
غبار 122
إيقاع 123

ـ أحْمد يوسف عقيلة.

- ـ الميلاد: 1958 في أحد نجوع بادية الجبل الأخضر ـ ليبيا.

الإصدارات:

1. الخيول البيض.. قصص.. 1999 الدار الجماهيرية للنشر.
2. غناء الصراصير.. قصص.. 2003 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.
3. الْجِراب (حكاية النجع) 2003 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.
4. عناكب الزوايا العُليا.. قصص.. 2003 منشورات مجلة المؤتمر.
5. حكايات ضِفْدَزاد.. 2003 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.
6. الحرباء.. قصص.. 2006 المجلس الأعلى للثقافة.
7. غنَّاوة العلم (قصيدة البيت الواحد).. 2008 دار الإبل.
8. قاموس الأمثال الليبية.. 2006 دار البيان للنشر والتوزيع والإعلان.
9. خراريف ليبية.. حكايات شعبية.. 2008 مجلس الثقافة العام.
10. درب الحلازين.. قصص.. 2010 دار الحوار للنشر والتوزيع.
11. غُراب الصَّباح.. قصص.. 2010 دار الحوار للنشر والتوزيع.

12. الكلب الرابع ـ قصص.. 2013 دار أركنو للنشر والتوزيع.
13. ديوان الشاعر الشعبي عبدالكافي البرعصي (غناوي عَلَم).. 2014 دار أركنو للنشر والتوزيع.

المخطوطات:

1. الشتّاوَة (بنت الغنّاوَة).
2. الأُغنية المصاحبة للعمل (غنّاوة جَزّ الصوف).
3. الأُغنية المصاحبة للعمل (الترجِيز).
4. غنّاوة العَلَم عند المرأة.
5. القاموس الليبِي للنفاق.
6. قاموس الدلالات الصوتية الليبية.
7. قاموس الكُنية في اللهجة الليبية.
8. قاموس أُصول المعانِي.
9. ضوء الكلام. (شهادة على الكتابة).
10. ديوان الشاعر الشعبي مراد البرعصي.
11. ديوان الشاعر الشعبي ارحيّم جبرين.
12. ديوان الشاعر الشعبي إدريس الشيخي.
13. فارق التوقيت ـ مقالات.

تُرجمت بعض أعماله إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية.

نشر قصصه في الكثير من الصحف والمجلات الليبية والعربية: الشلال - أخبار بنغازي - أخبار اجدابيا - الأفريقي - الجماهيرية - الشمس - أويا - قورينا - برنيق - لا - الفصول الأربعة - الثقافة العربية - المجال - العرب اللندنية - العربي الكويتية - المعرفة السورية - أخبار الأدب المصرية - الحياة التونسية - الشاهد - الزمان - القدس العربي - ألواح الصادرة بإسبانيا - ضفاف الصادرة بالنمسا - تموز الصادرة بالسويد.. والكثير من المواقع العربية على شبكة الإنترنت .

الموقع الخروبة:

/http://alkarrobah.blogspot.com

E.MAIL: YOUSSOF58@YAHOO.COM